رأي القدس

بداية مشؤومة لخطة بغداد الامنية

■ بدأت القوات الامريكية والعراقية يوم امس تطبيق الخطة الامنية الجديدة المنتظرة للسيطرة على العاصمة بغداد، ووقف التفجيرات الدموية واعمال الخطف والقتل التي حولتها الى جحيم لا يطاق. ولكن نجاح هذه الخطة في تحقيق اهدافها ما زال موضع شكوك الكثير من المراقبين.

فهذه ليست المرة الاولى التي يجري فيها الاعلان عن خطط امنية جديدة في بغداد او اجزاء اخرى من العراق. وهذا يعني، وببساطة شديدة، ان جميع الخطط السابقة قد منيت بالفشل.

واللافت ان اعمال القتل والتفجير تصاعدت في بغداد في الايام الاخيرة، اي بعد اعلان الرئيس جورج بوش عن استراتيجيته الجديدة التي تتضمن ارسال 21 الف جندي اضافي، ورصد 245 مليار دولار لتمويلها على مدى العامين المقبلين.

التطور الاهم الذي يستحق التحليل هو سقوط مروحية امريكية ومقتل سبعة من جنودها في عملية للمقاومة العراقية تزامنت مع اليوم الاول لتطبيق الخطة الامنية الجديدة، وبذلك يرتفع عدد المروحيات التي تم اسقاطها إلى خمس في الاسابيع الثلاثة الماضية، الامر الذي يعني ان قوات المقاومة طورت صواريخ جديدة قادرة على تهديد التفوق الجوي الامريكي الذي حقق نجاحات ملموسة منذ احتلال العراق قبل اربع سنوات.

الخطط الامنية في العراق تفشل لسببين اساسيين الى جانب اسباب اخرى اقل اهمية، الاول هو نمو قدرات المقاومة العراقية من ناحية الكم والكيف معا، وهذا واضح من خلال تزايد الخسائر البشرية في صفوف القوات الامريكية، حيث بلغت حوالي مئة وعشرة قتلى من الجنود في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي وحده، والسبب الثاني ضعف الحكومة العراقية وانعدام الولاء الوطني لقواتها لمصلحة الولاء الطائفي.

السيد نوري المالكي رئيس وزراء العراق شخص ضعيف امام الميليشيات الطائفية وقياداتها، وهو يستخدم لغة مزدوجة، فهو يؤيد كل المطالب الامريكية لحكومته بضرورة حل هذه الميليشيات ووضع حد لجرائمها وانتهاكاتها الامنية، ويعد بتنفيذها جميعا ودون تأخر، ولكنه في الوقت نفسه يغض النظر عن انشطة هذه الميليشيات ولا ينفذ ايا من وعوده بالتالي.

نزع سلاح الميليشيات يحتاج الى رجل قوي صلب يتخذ القرارات الصعبة وينفذها، ولا نعتقد ان هذه الصفات تتوفر في شخص مثل السيد المالكي او اي من افراد حكومته. فالسيد المالكي لا يستطيع بث الرهبة في قلوب الجنود العراقيين، او تحدي قياداتهم، واجبار الجميع على طاعته واحترام سلطته، مثلما كان عليه حال قادة العراق السابقين، وآخرهم الرئيس الراحل صدام حسين.

الادارة الامريكية تعيش مأزقا كبيرا متفاقما في العراق، ويزداد هذا المأزق صعوبة وتعقيدا مع فشل الجهود الدبلوماسية لايجاد مخرج سلمي لازمة البرنامج النووي الايراني عبر المفاوضات وتزايد احتمالات المواجهة العسكرية.

الرئيس بوش يخسر في بلاده دون ان يحقق اي مكاسب في حروبه التي يشنها في العراق وافغانستان، وبدأ يكتشف انه بلا حلفاء حقيقيين يمكن ان يعتمد عليهم في اي من البلدين. ولكن المفارقة الكبرى هي في العراق، حيث لن يكون مستغربا اذا ما انقلب عليه حلفاؤه وحاربوا في صفوف ايران، اذا ما اندلعت المواجهة بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية.

امريكا خسرت اكثر من 500 مليار دولار وثلاثة الاف جندي وعشرين الف جريح، وفوق كل هذا وذاك سمعتها والكثير من حلفائها، ومع ذلك قد تجد نفسها في نهاية المطاف تحالفت مع الجهة الخطأ، بحيث ينطبق عليها المثل الانكليزي الذي يقول مع هكذا حلفاء (مثل المالكي) من يريد اعداء!

حيث ينجح الآخرون ونفشل

د. علي محمد فخرو

■ لماذا تستطيع شعوب فقيرة غالبيتها من الفلاحين والهنود المهمشين، في بعض دول أمريكا الجنوبية، من تكوين جبهات وطنية تنجح في تجييش الشارع وفي منع رؤساء جمهوريات فاسدين من القفز فوق الدساتير ومحاولة ترشيح أنفسهم للانتخابات الرئاسية ودون وجه حق، وتفشل الشعوب العربية الأغنى والأكثر تعليماً من القيام بنفس الشيء ضد نفس الظاهرة بل وتسكت عن ترسّخ بدعة ولاية العهد وتوريث الحكم لأبناء الخارجين على القانون من حكامها؟ وحتى عندما يكون الشارع مستجيباً ولديه طاقة على الصمود، كما هو الحال في بعض البلدان، فان نجاح التحرك يبقى محدوداً ومتعثراً.

هذه ظاهرة سياسية تكاد تقتصر على المجتمعات العربية من بين كل مجتمعات العالم. بل إن هذه الظاهرة تصل أحياناً إلى حدود المأساة المضحكة عندما تفشل عاصمة عربية يقطنها الكثير الكثير من الملايين حتى في إخراج مظاهرة من بضعة آلاف، في حين تستطيع عواصم أمريكية جنوبية محدودة السكّان من حشد مئات الألوف. لنلاحظ أن التعدي على الدستور هو نفس التعدي والغضب من أجل منع مستغلي السلطة من التلاعب بحياة الأوطان السياسية هو نفس الغضب، فلماذا إذن يفشل العرب فيما ينجح فيه الآخرون؟ لا أعتقد أن الآخرين هم بشر أفضل منا، ولا أظن أن الآخرين لديهم إيديولوجيات أفضل وأجدى مما عندنا، وحتماً لا توجد عند الآخر قدرات على النضال والتضحيات أكثر مما لدينا. فتاريخ نضال الشعب العربي عبر القرنين الماضيين ضد أعداء الداخل والخارج كان مذهلاً بسخاء تضحياته. فأين تكمن المشكلة؟ أعتقد أن هناك سببين رئيسيين قد يفسران هذه الظاهرة العربية الغريبة المحزنة.

أولا: هناك أولاً التداخل البليغ الضرر بين المحلي من جهة والقومي والإقليمي والعالمي من جهة أخرى. فما أن تنضج حالة شعبية من الغليان لمقاومة هذا الوضع أو ذاك حتى ترتعد فرائص دولة عربية أو أكثر خوفاً من انعكاسات ذلك الغليان على الأوضاع المماثلة فيها، أو تتدخل دولة أو قوة إقليمية لتعديل الموازين التي تهمها كما يفعل الكيان الصهيوني في كثير من الأحوال. أما التدخلات الدولية فآثارها ماثلة في كل مكان.

والنتيجة هي إختراق لبعض القوى المحلية أو دعم سافر للرئيس أو النظام ضد المعارضين، وبالتالي تمزيق لأية جبهة وطنية معارضة حتى قبل أن تقوم.

لايوجد في أي مكان نظام قومي قادر على ارتكاب الحماقات كالذي عندنا، ولا يوجد في أية بقعة وجود استيطاني توسعي مناهض للحرية والتقدم كالذي عندنا، ولا يوجد تكالب على أية ثروة طبيعية كذلك التكالب المسعور على ثروة بترول العرب ومواقع وطنهم الإستراتيجية.

ثانيا: إن الذي يجعل تلك التدخلات ممكنة ونافذة في كثير من الأحيان هو البنية الرّخوة للمجتمعات العربية. فالتنافس والصراع العرقي والديني والمذهبي والقبلي والعائلي والتاريخي والإيديولوجي لايتواجدان بنفس الحدّة والعنف والإنتهازية في أي بقعة من بقاع العالم كما يتواجدان في أرض العرب. ويزيد من قوة واستمرار ذلك التنافس والصراع غياب مفجع، كالتي توفره من أجواء وآليات الديمقراطية مثلاً، القادرة على تخفيف وطأتهما وقيادتهما في معارج سلمية وعادلة ومقبولة. من هنا الاستزلام لهذا أو ذاك وتفجير الجبهات الوطنية من الداخل.

نحن أمام مجتمعات منقسمة على نفسها إلى حد التفتّت ومنكشفة على الخارج إلى حد الإستزلام. هل يعني ذلك استحالة قيام جبهات وطنية لمجابهة مخاطر سياسية أو وطنية كبرى؟ الجواب بالطبع هو النفي. لكن في اعتقادي أن الخروج من هذه الوضعية الصعبة هو اعتماد الجبهات الوطنية على العمق الشعبي القومي العربي وعلى العمق الشعبي الإسلامي. التنسيق والتحالف مع هذين العمقين والحصول على مساندتهما هو أحد المداخل الرئيسية للتغلب على إشكاليتي الإنكشاف الخارجي والتشرذم الداخلي. وهكذا فأينما نولّي وجوهنا فثم العروبة والإسلام.

وماذا عن استراتيجية المقاومة العراقية؟

عوني القلمجي *

■ شغل بوش العالم ولازال، بتعدد الاستراتيجيات لانقاذ مشروع الاحتلال من السقوط. وكلما اعلن عن واحدة زاد الطين بلة، سواء على المستوى العسكري او السياسي. هل يحتاج الامر الى التفاصيل لاثبات هذه الحقيقة؟ ام يكفي لجوء بوش الى زيادة عدد القوات واستجداء الدعم من القريب والبعيد لتحقيق الانتصار حتى وان كان محدودا؟. هل نزيد ونشير الى موت العملية السياسية وفشل كل المحاولات لبعث الروح فيها؟ ام نشير الى فشل مشاريع ما يسمى بالمصالحة الوطنية او الوفاق الوطني؟ وما دمنا نتحدث بالجملة، الا يستحق الاعلام الامريكي بكل جبروته نصيبه من الفشل، لعجزه عن تلميع وجه الاحتلال البشع وتزيين صورة بوش وانقاذ شعبيته من الانحطاط وتجنيبه دخول كتاب «غينيس» كأغبى رئيس عرفته امريكا؟ ثم لماذا الذهاب بعيدا، لماذا لا نسأل بوش عن الجديد في استراتيجيته الخائبة، اللهم الا تلك الزيادة في عديد القوات الذين سيدخلون النار بارجلهم. واذا تركنا بوش مشغولا بالاجابة وسألنا التاريخ، هل يوجد في صفحاته مثال عن نجاح مشروع احتلالي في ظل وجود مقاومة مسلحة قررت تحرير البلاد والعباد شبيهة بالمقاومة العراقية او اقل منها؟

نطرق هذا الباب مجددا ليس من اجل تأكيد الفشل المريع لاستراتيجيات بوش القديمة والجديدة، ولا الحديث عن اسبابه الظاهرة والمتمثلة بقوة المقاومة العراقية وبسالتها، وانما البحث عن الاسباب الاكثر قوة والتي لم تحظ بالاهتمام الكافي، او جرى تجاهلها او الابتعاد عنها. والمقصود هنا استراتيجية المقاومة العراقية التي بفضلها هزم مشروع الاحتلال وهزمت معه تلك الاستراتيجيات المتعاقبة. ولعل منشأ هذا التوجه يعود الى حقيقة، كون الحروب مهما تعددت وتنوعت اشكالها، لايمكن كسبها دون استراتيجية واضحة وثابتة، ثم تأتي لاحقا العناصر الاخرى مثل التكتيك لجهة تنفيذ العمليات في المعارك المختلفة، ثم التقدم العلمي الذي يحسم الكثير من المواقف واخيرا الخطة او مجموعة الخطط التي تتعلق بمجمل عملياتها وهي في حقيقة امرها توظيف للعناصر الثلاثة السابقة في زمان ومكان بعينهما. وكما يذكر خبراء حروب التحرير، فان استراتيجية المقاومة لابد لها وان تستند على عناصر او مبادئ مكملة، تأتي في المقدمة منها العمل من خلال حزب او مجموعة احزاب او تجمعات عقائدية تتمتع بارادة صلبة لا تلين وايمان عميق بالتحرير، واللجوء الى الحرب الشعبية الطويلة الامد، بدل الحسم العسكري، لان ذلك يفوق قدرات المقاومة وكذلك المرحلية في الصراع والاعتماد على التأييد الشعبي واخيرا العمل على توفير دعم عالمي مناسب.

يمكننا القول بان المعركة الدائرة على ارض العراق هي معركة استراتيجيات، مثلما هي معركة سلاح ومقاتلين، على الرغم من ان البعض يعتقد بان المقاومة الشعبية هي نوع من الدفاع التلقائي غير المنظم، يلجأ إليه الشعب عاطفيا لمقاومة قوات محتلة، ودون الحاجة الى تنظيمات سياسية معينة. ويترك لتطورها لاحقا اكتساب المبادئ الاخرى في كل الاحوال. على ان ما يعنينا في هذا المجال هو استراتيجية المقاومة بشقيها العسكري والسياسي والتي اثبتت صحتها على ارض الواقع. في حين يدخل ما عداها تحت هذه المظلة.

ففي الجانب الاول اعتمدت فصائل المقاومة على الحرب الشعبية الطويلة الامد، على الرغم من، ادراكها ضخامة المسؤولية كون الظروف العربية والعالمية على المستوى الرسمي، لا تسير في صالحها كبقية المقاومات الاخرى، الامر الذي يشكل خطورة على ديمومتها، فلا معين عربيا ولا دوليا ولا اعتراف بها من قبل المنظمات والهيئات الدولية. بل على العكس من ذلك لان الجميع قد برر وساهم او شارك كل حسب قدرته في احتلال العراق والاعتراف به وتكريسه. مما جعل هذه المقاومة تخوض تجربة غير مسبوقة تكون نبراسا ودرسا بليغا لكل شعوب الارض، عبر اثبات حقيقة مفادها ان الاعتماد على الذات وتحقيق النصر هما امكانية قابلة للتحقيق. ولم يأت قرار المقاومة المسلحة من فراغ، فطبيعة الاحتلال وضخامة اهدافه والاصرار على تحقيقها وغطرسة المحتل وعنجهيته واعتماده على لغة القوة، قطع الطريق على العراقيين في الاعتماد لتحرير العراق، على الوسائل السلمية والديمقراطية، او اللجوء الى المنظمات العالمية كهيئة الامم المتحدة او مجلس الامن او غيرها. وفي هذه الحرب الشعبية كان الشعار المركزي حرمان الغزاة من تحقيق النصر وانجاز اهدافه الغادرة كخطوة لازمة لهزيمته لاحقا. واسندت هذه المهمة في البداية الى الفصائل الفدائية المنظمة التي تعتمد على الانسجام والانضباط وروح التضحية بين عناصرها. وكون هذه الفصائل الناشئة تفتقر الى الامكانات الكافية في السلاح والعتاد والمال والتموين اضافة الى المواقع الحصينة كالجبال والغابات او الاهوار او حتى الدفاعات الحصينة، لجأت الى الجماهير للحصول على الحماية والدعم والمساندة، ثم انتقلت الى تسييسها وتأطيرها الاجتماعي وكسب الشرعية من داخل وسطها الذي تحيا فيه. الأمر الذي فتح المجال امامها لتوسيع اطار الفصائل الفدائية الطليعية بحيث اصبحت قادرة على حماية هذا الكيان الاجتماعي من أي إعتداء أو تهديد من قبل الغزاة.

وعلى الرغم من خصوصية المقاومة العراقية والميزات التي طبعت عملها وخصوصية الصراع وآليته واهدافه الا انها تشترك في السياق العام مع المقاومة الشعبية في البلدان الاخرى مثل المقاومة الصينية ضد الغزاة اليابانيين، والسوفيتية ضد الألمان، والجزائرية، ضد الفرنسيين والفيتنامية ضد الأمريكيين، فليس غريبا والحالة هذه اندلاع المقاومة العراقية ضد الغزاة وتهيئة مستلزماتها بالوسائل المتاحة وبما يكفل لها الانتصار الاكيد. وكان من بين ابرز مفاهيمها هو ان النصر الحاسم لن يأتي دفعة واحدة وانما من خلال تحقيق الاف من الانتصارات الصغيرة. فالمقاومة الشعبية هي حرب السياسة في مواجهة القوة، وحرب الأضعف في مواجهة الأقوى. ومن اجل هذا لجأت فصائل المقاومة الى اطالة امد الحرب حتى اذا ادى ذلك إلى التراجع من هذا الموقع او ذاك إذ لا يهم هذا التراجع المكاني مادامت الرقعة السياسية تزداد يوما بعد يوم. ولإطالة أمد الحرب، انتهجت المقاومة عقيدة «الحركية» من الناحية العسكرية، وتعني هذه العقيدة الديناميكية الدائمة، فضلا عن الفعالية والمبادرة وسرعة اتخاذ القرار في مواجهة الأوضاع المتغيرة. بحيث تظل الحرب سائرة إلى الأمام دوما. فعقيدة الحركية واستمراريتها تحمي رجال المقاومة من الفتور وفقدان الحماسة الامر الذي يؤدي حتما الى زيادة عدد المقاتلين ويضاعف من قوتهم كل يوم. في حين تولد هذه الحركية واطالة امد الحرب حالة اليأس لدى الغزاة جراء قناعاتهم المسبقة بالنصر الحاسم والسريع. فضلا عن ذلك فان المقاومة العراقية قد اولت اهتماما بالغا لعنصر الالتزام والانضباط والسرية اذ بدونه، لن تستطيع هذه الفصائل الزام المقاتلين وكبح جماحهم، وتقديم المعاونة لمن يحتاج إليها من تشكيلاتها المنتشرة هنا وهناك للوصول الى التنسيق المشترك لعملياتها العسكرية وهي بهذه الاساليب قد افشلت استراتيجية بوش بجانبها العسكري.

اما الجانب السياسي فقد كان محط اهتمام كبير من قبل المقاومة العراقية حيث سارت به وفق القوانين ذاتها التي انتهجتها جميع المقاومات وفي مختلف البلدان، حيث رهنت تطور البرنامج السياسي وآفاقه المستقبلية بتطور الصراع على ارض المعركة لينضج لاحقا عبر موجة من التعبئة الجماهيرية والمجابهات مع الغزاة التي من شأنها ان توضح اكثر العلاقة بين قوى المجتمع الوطنية داخل حركة التحرير. وهذا لا يعني بان فصائل المقاومة العراقية لم تمتلك الرؤية الواضحة لمفاصله الرئيسية والمتمثلة بالتحرير الكامل وبناء العراق الديمقراطي الموحد. بل ان بعض فصائل المقاومة وبعض الاحزاب الوطنية المناهضة للاحتلال قد انجزت خطوات هامة على هذا الطريق حيث اقامت الجبهة الوطنية والقومية والاسلامية كخطوة اولى على طريق اقامة الجبهة العريضة، التي يراد لها ان تشمل جميع القوى المسلحة والقوى السياسية المناهضة للاحتلال، ايمانا منها وليس ارضاء للاخرين، بان انجاز مثل هذه الخطوة الاولية، من شأنها ان تجسر العلاقة مع الجماهير وتوسع دائرة التأييد الشعبي للمقاومة، كونه يمثل الحليف الرئيسي للمقاتلين، وقد اجمع الخبراء في هذا الصدد، على ان اساس هذا التوجه يحقق أمرين متلازمين: أولهما، احتياج المقاتلين لمثل هذا التأييد لتعويض التفوق المادي المعادي ويوفر في نفس الوقت إمكانية النمو والتخفي بين الجماهير، والحصول منهم على المؤن اللازمة للاستمرار. وثانيهما، ان المقاومة الشعبية تعتبر حربا سياسية يسعى بها رجالها لتنفيذ برنامجها السياسي المتكامل، وكما هو معروف فان جميع البرامج السياسية تحتاج بجوار القيادة والحزب السياسي إلى قاعدة شعبية.

يحق للبعض ان يتهمنا بتبسيط الامور وخاصة بالنسبة لبعض المثقفين، الذين يكرهون شيئا اسمه القتال والمقاومة المسلحة، ويفتنهم العمل السياسي ويضعونه في مصاف العمل المسلح، بل ويذهبون ابعد من ذلك ويحكمون على المقاومة المسلحة بالفشل ان هي لم تف هذا الجانب حقه وبكل تفاصيله. لكن هذا البعض نسي او تناسى رابطة الدم التي جمعت فصائل المقاومة، وهي اقوى من اي برنامج سياسي كتب على الورق وسرعان ما يجري التخلي عنه في اغلب الاحيان. نقول هذا دون ان نستهين بهذا الجانب ولكننا لا نبالغ به الى تلك الدرجة. فالفرنسيون مثلا لم يشترطوا للانخراط في صفوف مقاومة النازية، ان يكون الكتاب السياسي في يمين المقاتل والبندقية في يساره، ومثلهم اكثر حركات التحرر، رغم ذلك فان لكل فصيل عراقي مقاوم برنامجه السياسي المعلن والذي يتفق فيه مع برنامج الفصائل الاخرى على القاسم المشترك الاعظم. والذي سيمهد الطريق امام الجهود المبذولة لصياغة برنامج سياسي موحد. وما يهمنا في هذه المرحلة والصراع بلغ اشده ان الكل متفق على الخط العام لهذا البرنامج وهو كما ذكرنا التحرير الكامل وبناء العراق الديمقراطي الموحد. ناهيك عن التقاء العديد من فصائل المقاومة الرئيسية والعديد من الاحزاب الوطنية المناهضة للاحتلال، في جبهة وطنية وقومية واسلامية واحدة دون ان يتوقف العمل لاجل الوصول الى الهدف المنشود. ولاجل هذا تسعى اطراف الجبهة الى تحشيد قوى الشعب بكل مكوناته عبر توضيح الهدف المركزي للمقاومة وبذلك تكون نتائج استراتيجيتها هذه على ارض الواقع، بشقيها المسلح والسياسي، راسخة ومتينة. وهذا ما حصل فعلا بدليل الانتصارات الباهرة التي تحققت ووضعت المحتل في مأزق لايمكنه الخروج منه الا باعلان الانسحاب الكامل وغير المشروط.

تخوض المقاومة في هذه المرحلة بل وفي هذه الايام المعركة الفاصلة في بغداد وهي قد اعدت العدة لهذه المعركة الكبرى وفق هذه الاستراتيجية الناجحة، في حين تخوض قوات الاحتلال معركتها وفق استراتيجية مخالفة تماما تنطوي على جميع عناصر الفشل، هذا الفشل الذي نأمل في ان يكون نتيجة معركة بغداد القادمة، مما قد يجبر بوش على التسليم بالهزيمة او توريثها الى الرئيس او الرئيسة القادمة.

* كاتب من العراق

زيارة الرئيس الصيني «خو جنتاو» إلى السودان

د. يوسف نور عوض *

■ تتصرف الولايات المتحدة على أنها الدولة الوحيدة ذات المصالح السياسية في العالم، وهي تغذي سياسات تتعارض في كثير من الأحيان مع مصالح الشعوب وتتوقع من دول العالم أن تستجيب لها، وهي ذات تجربة واسعة وفي رضوخ كثير من الدول لمصالحها في مجلس الأمن ولكن ذلك لا يعني أن بعض الدول تمارس السياسات التي تخدم مصالحها بوسائل مختلفة. فقد رأينا خلال هذا الأسبوع كيف أن الولايات المتحدة دفعت إلى الكونغرس بميزانية تزيد عن ستين مليار دولار وهي ميزانية مهولة وتؤكد أن كل مواطن أمريكي يسهم بأكثر من ثلاثة آلاف دولار في العام من ميزانية الولايات المتحدة، ويتساءل الناس كيف توفر الولايات المتحدة هذه الإمكانات الهائلة من أجل خدمة أهدافها العسكرية، والمسألة بكل تأكيد لا تحتاج إلى غموض ذلك أن الموارد الاقتصادية الهائلة ليست انعكاسا للوضع الإقتصادي الأمريكي بقدر ما هي انعكاس لاحتكار عملة عالمية رئيسية هي الدولار وهو موقف تشارك فيه بريطانيا أيضا بكون الموارد الهائلة التي تقع تحت أيدي هذين البلدين سببها كون عملتي الدولار والإسترليني يمثلان العملتين الرئيستين في العالم وتوفران موارد هائلة لواشنطن ولندن ليس من خلال التطور الإقتصادي والإنتاجي بل فقط من خلال احتكار إنتاج هاتين العملتين اللتين يمكن من خلال طباعتهما بما يزيد عن حاجة هذين البلدين أن توفرا إمكانات هائلة لكل من الولايات المتحدة وأمريكا وهو وضع لا يتوافر للدول المنافسة مثل روسيا والصين وفرنسا.

ويلاحظ أنه على الرغم من أن هذه الدول الثلاث الأخيرة لا تقف في مواجهة مع الولايات المتحدة أو تعارض سياساتها المعلنة فهي تعمل على تحقيق مصالحها بإتباع خط دبلوماسي آخر اثبت نجاحه وإن كان يوجه رسائل غير صحيحة لبعض الدول التي تتضرر من السياسات الأمريكية، ذلك أن فرنسا وروسيا والصين التي تعلن في كثير من الأحيان مواقف مساندة للدول التي تستهدفها الولايات المتحدة فإنها في آخر الأمر ترضخ لما تريده الولايات المتحدة بتمرير قراراتها في مجلس الأمن على غير ما تريده الدول المستضعفة ومع ذلك تتحرك هذه الدول الثلاث في اتجاه قبض الثمن من الدول الفقيرة التي ما زالت تؤمل في أن يكون وجودها تحت مظلة واحدة مع الدول الكبرى يمكن أن يحقق لها مصالح خاصة وإن لم تكن من الناحية السياسية فلتكن من الناحية الاقتصادية. وإذا تأملنا جولة الرئيس الصيني الأخيرة في القارة الإفريقية استطعنا أن نقرأها من هذا المنطلق فهي جولة تستهدف تحقيق مصالح الصين بالدرجة الأولي بكون الرئيس الصيني لا يتحرك لزيارة دولة بعينها ذلك أن معظم دول القارة الإفريقية دول صغيرة ولا تؤثر علاقاتها الاقتصادية منفردة بالصين تأثيرا كبيرا وذلك ما يجعل الصين لا تفكر في التوجه إليها واحدة إثر أخرى بل تشملها بزيارة واحدة شاملة وفق إستراتيجية واضحة المعالم على الأقل بالنسبة للصين.

وفي هذا الإطار يمكن أن نقرأ زيارة الرئيس الصيني للقارة الأفريقية ولكننا في الواقع نريد أن نجتزئ من هذه الزيارة الموقف من السودان لان الولايات المتحدة كانت تؤمل أن تكون زيارة خو جنتاو إلي السودان دفعة تقنع الحكومة السودانية بضرورة الاستجابة للمطالب الأمريكية ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فقد أرادت الولايات المتحدة من الرئيس الصيني أن يمارس ضغطا على الحكومة السودانية من أجل تصحيح مسار السياسة الأمريكية المتعثرة في السودان ولكن الرئيس الصيني لم يعر المطالب الأمريكية التفاتا، ولم يمارس الضغط الذي كانت تتوقعه الولايات المتحدة وقد فسر ذلك الرئيس السوداني عمر حسن البشير بان الصين لم تكن تريد من زيارة الرئيس تغيير أسبقياتها لكي تضغط على الحكومة السودانية من اجل إنجاح سياسات أمريكية فاشلة. ولكن الرئيس الصيني طالب بالطبع الرئيس السوداني بمضاعفة الجهود من اجل تطبيق بنود اتفاقية السلام الموقعة في دارفور حتى يتفادى أي ضغوط دولية. بحسب ما صرح به مصدر دبلوماسي سوداني رفض الكشف عن هويته. وقد حفزت زيارة خو إلى السودان على توجيه انتقادات سودانية للعالم الغربي الذي اتهمته الحكومة السودانية بأنه يستخدم وكالات الإغاثة الدولية من أجل الضغط على الحكومة السودانية بنشر تقارير وحوادث تعتمد على المبالغة وتعمد إلى تشويه صورة الحكومة السودانية.

وعلى إثر هذه الزيارة قال بعض الدبلوماسيين الغربيين العاملين في الخرطوم إن زيارة خو لن تسهم في تغيير موقف الحكومة السودانية ولن تدفعها للاستجابة للمطالب الغربية وربما ذلك هو الذي شجع الرئيس السوداني لإطلاق تصريحه المثير في فترة لاحقة والذي دعا فيه بريطانيا وغيرها من القوات الغربية أن تجرب المجيء إلي السودان لتواجه الهزيمة التي قال إن القوات الإنكليزية قد واجهتها من قبل.

ولا شك أن الولايات المتحدة شعرت بقلق كبير من زيارة الرئيس خو جنتاو للسودان حيث وصفها الناطق بلسان وزارة الخارجية الأمريكية شون ماكورماك بأنها وجهت رسائل مزدوجة بشأن تعاون الصين من أجل توجيه رسالة للسودان بسبب موقف الحكومة من قضية دارفور، فقد رأى ماكورماك أن الصين غلبت مصالحها التجارية على أي هدف آخر خلال هذه الزيارة ولم يكن ذلك غريبا لان الرئيس الصيني لا يتحرك بكل تأكيد من أجل تحقيق المصالح الأمريكية، ولكن الذي أزعج الحكومة الأمريكية حقا هو أن الرئيس الصيني خلال هذه الزيارة ابلغ السودان بشطب جميع الديون الصينية عليه وهو ما لا تريده الولايات المتحدة ولم تقف الصين عند هذا الحد بل تعهدت ببناء قصر جمهوري جديد وهو أمر له دلالة رمزية لان القصر الذي تحتله رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر هو القصر الذي كان يحتله غوردون باشا من قبل وهو القصر الذي مارس حكام الإنكليز سلطتهم في السودان من داخله، وبالتالي فإن تغيير القصر الجمهوري سيكون ذا دلالة رمزية بالغة الأهمية.

ولا شك أن المواقف الصينية هي استمرار لمواقف الدعم التي تتلقاها الحكومة السودانية من الحكومة الصينية بسبب تطور المشاريع الاقتصادية بين البلدين ذلك أن الصين تشتري ما يقارب ثلثي إنتاج السودان من النفط ولها استثمارات واسعة في هذا القطاع. وهي بكل تأكيد ليست على استعداد لكي تضحي بمصالحها من أجل تطبيق سياسات أمريكية ثبت فشلها ولا تتمتع برؤية سياسية واسعة وموضوعية.

والغريب هو أن السياسات الأمريكية ما تزال تدور في حلقات مفرغة على الرغم من افتضاح أمرها وإنها لم تعد تستهدف إيجاد حلول لمشكلات السودان بقدر ماهي تستهدف توريط السودان في استراتيجيات لا تخدم مصالحه في نهاية الأمر وعلى الرغم من أن الحركة الشعبية سارت في طريق تأييد السياسات الأمريكية فترة طويلة من الوقت فإن التحول الذي حدث أخيرا يؤكد أن الحركة الشعبية ربما بدأت تنظر إلى المصالح الوطنية بعين تختلف عن عين الولايات المتحدة وقد ظهر ذلك بشكل واضح في عودة سلفا كير مياردیت إلي القصر الجمهوري من جديد بعد غيبة طويلة عنه كما ظهر في اجتماعات قطاع الشمال بالحركة الشعبية الذي انتخب ياسر عرمان رئيسا له وظهر في الانتقادات التي وجهها مساعد رئيس الجمهورية منصور خالد علي غير عادته إلى من سماهم الانفصاليين في الحركة الشعبية الذين اتهمهم بأنهم لم يفهموا تصريحات سلفا كير وبدأوا يطالبون بالاستعداد لمرحلة الانفصال وقد بدأ سلفا كير نفسه يغير خطابه حين ذكر ان خيار الوحدة هو الخيار الأفضل للسودان. ولكن ذلك كله لا يجعلنا ننجرف وراء تصورات قد لا تكون دقيقة خاصة مع وضع سوداني يحتاج إلى كثير من الإصلاح وأول طريق الإصلاح يبدأ بان تضع الحكومة تقييما حقيقيا لواقعها لمعرفة مصدر الخلل والأسباب التي تجعلها لا تقترب من التيارات السياسية الأخرى في البلاد ذلك أنه دون فهم موضوعي لهذا الواقع ومحاولة الخروج من هذا المأزق فإن جميع المواقف المتشددة من المطامع الدولية لن تؤتي أكلها ولن تحقق الأهداف التي ترجوها حكومة السودان.

* كاتب من السودان

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان
رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741ـ0208 (6 خطوط)ـ
فاكس: 8902 741ـ0208 أو 7637 748ـ0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 723152(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 420 57364 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) **Fax:** 0208-741 8902 / 748 7637
email: ***alquds@alquds.co.uk*** * *Internet:* ***www.alquds.co.uk***
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 723152
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364